

الحضارة الفينيقية في الألف الأول

٣٣٢-١٢٠٠ قبل الميلاد

للمؤرخ اللبناني الكبير جواد بولس

من كتاب لبنان والبلدان المجاورة

بعد سنة ١٢٠٠، عرفت الحضارة الفينيقية، التي برزت بجلاء في الألف الثاني، وجهاً جديداً من الانفتاح دام عدة قرون، بفضل حقبة طويلة من السلام والاستقلال. وكانت العناصر الأساسية لهذه الحضارة الجديدة (حياة دينية وثقافية وفنية، ومعطيات اجتماعية-اقتصادية وسياسية الخ.)، تشبه إلى حد بعيد العناصر والمظاهر ذاتها التي شهدناها خلال القرون السالفة. وقد "بلغت (هذه الحضارة) ذروتها حوالي سنة ١٠٠٠ م.، وبدأ انحطاطها زمن احتلال الاسكندر الكبير، أي سبعمائة سنة تقريباً فيما بعد".

المعتقدات الدينية: كان الدين الفينيقي، في الألف الأول قبل المسيح، لا يزال، كما كان في الألفين الثالث والثاني، يحتفظ بالخطوط الكبرى التي كانت تسمه منذ نشأته، فهو لم يطرأ عليه تغييرات عميقة إلى حد ما، إلا خلال النصف الثاني من الألف الأول قبل المسيح، وذلك بفعل النفوذ الهليني الذي ساد جميع بلدان الشرق الأدنى. وكما كانت الحال في السابق، بقيت أسس التراث الأسطوري والديني راسخة في عبادة العناصر والظواهر الطبيعية. وقد بقي مجلس الآلهة منظماً، وبقيت للآلهة رتب وخصائص كثيرة ومعقدة. وحيث كانت الديانة الفينيقية فرعاً من الدين الآسيوي البدائي، الذي يعظم قوى الخصب والانسال، بقيت تحتفظ بنقاء بآثار عديدة من هذا الأصل. فالإله الأعظم "إيل"، كانت أنثاه "أشيرة البحر"، وهي تدعى أيضاً "إيلات" (آلهة). والبعل، الإله الكبير بين الآلهة بعد إيل، كانت رفيقته أشيرة، ثم يأتي بعد ذلك مباشرة "عليان"، ابن بعل، وأخته هي "عناة"، البتول المحاربة. وكان الإله "موت" أخوا لعليان وخصماً له، الخ.

الــــــفن

رأينا في الألفين الثالث والثاني، كان الفن الفينيقي في جوهره عالمي الوجه، وقد استعار عناصره من الحضارات المجاورة، ولكن في الألف الأول "لم يعد يكتفي الفن الفينيقي بالتقليد، بل أخذ ينتظم ويستوعب استعاراته هذه حتى يؤلف منها مجموعة متجانسة" انه بدأ يكشف بقوة أكثر عن طبعه الأصيل. ولم تكن فينيقيا، كما كانت مصر وبلاد الرافدين، قوة سياسية كبيرة. فبالنسبة للمدن الفينيقية، التي هي في جوهرها بحرية وتجارية. كان نفوذها السياسي ناتجاً عن نشاطها

الاقتصادي والتجاري وعن قوتها المالية. وبما أن الفينيقيين لم يكونوا يضعون أمام أعينهم سوى مصلحتهم التجارية وتوسعهم في البحار، فقد تفاهموا، في جميع عصورهم التاريخية مع جميع الفاتحين القاريين وحافظوا تحت حكم هؤلاء، على شبه استقلال ذاتي مفيد. وقد قادهم دورهم كوسطاء في بيع المحاصيل إلى أن لا يهتموا في معاملاتهم إلا بحاجات تجارتهم، ولذلك كانوا يقلدون الأشياء الأكثر رواجاً. إن المهارة التي كان يعتمدها الفنان الفينيقي في تنسيق الأذواق الغربية تثبت انه لم يكن مجرداً من مقدرة حقيقية. لقد كان بعض المنتجات الفينيقية، في الألف الأول، يعتبر من أجمل التحف الفنية. وقد أوردت الإلياذة أوصاف كأس فضة يملكها أخيل، فذكرت أنها كأس من الفضة "تفوق روعتها كثيراً جميع آنية الأرض، ما دام الصيدونيون الماهرون قد زينوها على وجه رائع".

فـنـ الـبـنـاء

وكما في القرون السابقة، كان فن البناء يعتمد دائماً على الحجر. وكان يستخدم، في أغلب الأحيان، النقوش التزيينية لمغزى ديني. "كان يقتصر فن البناء الديني في الأساس على الهياكل، فيقوم الفينيقيون بنحت الصخور عندما يجيدون سبيلاً إلى ذلك، ثم يكملون عملهم بتكديس مجموعات من الصخور ذات أحجام ضخمة. كانت هذه المجموعات متقنة النحت عادة، تصفّ الواحدة إلى جانب الأخرى دون طين وبشكل دقيق، حتى انه كان من المستحيل إدخال شفرة السكين بين الحجر والآخر". "أما ما تبقى لنا من البناء الذاتي فلا شيء تقريباً. وإذا أخذنا بعين الاعتبار عدد الفاتحين الذين دمروا المدن ليقيموا أبنيتهم الضخمة على أنقاضها، نجد أن أماننا ضعيف بأن نعثر في فينيقيا على آثار مهمة لأبنية مدنية من عصور قديمة. فهي جميعاً في حالة أنقاض. بل أكثر من ذلك، إنها مدفونة تحت المنازل الحديثة. ومن جهة ثانية، بقي بعض الآثار من المنشآت ذات المنفعة العامة، كالسدود وحواجز الأمواج، التي ثبت ما عرفناه عنهم خلال فحص الهياكل: فالفينيقيون حين استعمالهم للحجارة الضخمة، كانوا يجعلونها تستند على الصخر الطبيعي".

النـحـت

"تملك من الألف الأول تماثيل للآلهة من الحجر والخزف، وهي إما محفورة أو بشكل تماثيل. وتعكس هذه الرسوم نوعين من التأثير: المصري والإغريقي. فتمثال عمريت (في شمال فينيقيا) يمثل بدقة ما كان عليه الفن الفينيقي قبل النفوذ الإغريقي. إنه مزيج من التصاميم السورية-الحنثية-الآشورية-البابلية والمصرية، التي استطاعت العبقريّة الفينيقيّة البارعة أن تستوعبها

وتصوغ منها مجموعاً منسجماً ذاتياً."

المرافئ

"لم يتقن الفينيقيون إلا تدريجياً حماية موانئهم بالأرصفة. ولكن الذي قام به الصوريون والصيدونيون والارواديون، عندما جمعوا ما بين الصخور البحرية في القعر والصخور المنقولة من الشاطئ بحيث جعلوا منها جدراناً هائلة بضخامتها لحماية موانئهم، هو بحد ذاته جدير بالإعجاب".

أسطول سليمان وهيكله

أوكل الملك سليمان (٩٥٥-٩٣٣) إلى فينيقي صور، أمر بناء أسطوله على البحر الأحمر وجهزه بحارة فينيقيين، وكذلك أوكل إلى المهندسين والعمال الفينيقيين أمر بناء قصره الملكي، وهيكله أورشليم الشهير.

الابحار حول أفريقيا

حوالي سنة ٦٠٠ قبل الميلاد، أوكل الفرعون نخاو الثاني إلى الأسطول المصري على البحر الأحمر، الذي بناه وجهزه البحارة الفينيقيون، أمر استكشاف شواطئ أفريقيا الجنوبية. وبعد أن دار الفينيقيون حول الرجاء الصالح، قبل فاسكو دي غاما بعشرين قرناً، عاد هؤلاء، بعد سنتين من الملاحة، إلى مصر، عبر مضيق جبل طارق.

الأرجوان

اخترع الفينيقيون الأرجوان الذي كانوا يصنعونه في صيدا وصور. وقد تفردوا باحتكاره. "واشتهروا بنوع خاص بالفنون الخفيفة، وبالأخص صناعة الزجاج".

دور فينيقيا الثقافي في الألف الأول

فينيقيا وبلاد الإغريق

إن غزو شعوب البحر والشمال (حوالي ١٢٠٠ ق.م.)، الذي دمر الدول والمؤسسات القائمة في بلاد الإغريق وفي آسيا الصغرى وفي فينيقيا، وضع حداً للحضارات الموجودة في هذه البقاع. فالدوريون، المهاجرون الشماليون المتخلفون الذين خلفوا الآبيين في بلاد الإغريق بعد أن دموا إمبراطوريتهم وحضارتهم، جعلوا من العالم الإغريقي الإيجي والاناضولي منطقة متوحشة. وبينما كان الإغريق يتطورون، بعد نكبة ١٢٠٠ ق.م. وخلال عدة قرون، بشكل جماعات بدائية، كانت فينيقيا، منذ سنة ١١٠٠، في أوج نهضتها. فأسطولها القوي كان موجوداً في جميع المرافئ، والتجار الفينيقيون كانوا يمخرون البحار، ومستعمراتهم منشورة في كل مكان. ومنذ هذا العصر،

أخذ نفوذ فينيقيا الاقتصادي والثقافي يطل على شعوب المتوسط الغربي التي كانت بدأت تظهر في التاريخ، وعلى بلاد الإغريق، التي كانت عادت إلى الحياة البدائية. ومنذ ذلك الزمن أطلق الإغريق على كنعانيي لبنان اسم "فينيقيين". وكما أن الفينيقيين، في الألف الثالث، نقلوا إلى العالم الكريتي - الأيحي، الحديث العهد آنذاك، الحضارة الشرقية الناضجة منذ عدة قرون، كذلك، بعد كارثة سنة ١٢٠٠ ق.م.، إن العالم الإغريقي-الأيجي--الذي وقع من جديد في الحياة البدائية، تعرّف إلى الحضارة بفضل مساعدة الفينيقيين، الذين نقلوا إليه من جديد العناصر الأساسية للحضارة الشرقية. ذلك إن "التجربة الرهيبة لغزوة شعوب البحر أخرجت الحضارة الفينيقية، ولكنها لم تقض عليها. ويبدو انه بعد مرور الغزاة استعادت الحضارة سيرها منطلقة من الموانئ والشواطئ اللبنانية. وهذه المبادرة المشرفة، التي ليس بحوزتنا منها سوى إشارات، انتهت مع الحكم الآشوري". وفي القصائد الهومييرية، المنظومة حوالي سنة ٨٠٠، نجد النفوذ الفينيقي حقيقة لا يمكن نكرانها. فعندما نظمت الإلياذة والأوديسة، كانت فينيقيا في أوج ازدهارها، وكانت تشع تجارتها بعيداً فوق البحار كان العالم الإغريقي بأجمعه مديناً، بادئ الأمر، للفينيقيين، وقد برهن م. ف. بيرار، في مجموعة مؤلفاته القيمة، كيف أن العالم الإغريقي كان مديناً لهم".

وقد اقر الإغريق القدامى أنفسهم بأن الفينيقيين هم رواد نهضة البلاد الهلينية الحضارية. وإذا عدنا إلى قصصهم الأكثر شهرة وأمانة، نجد قدموس ابن أغينور، ملك صور الفينيقي، الذي ذهب للفتيش عن أخته "أوربة" التي خطفها الإله "زفس"، قد أسس مدينة "طيبة"، في بلاد الإغريق، ونشر الأبجدية، وعلم الإغريق فن حراثة الأرض واستغلال المناجم وصهر المعادن. " وكان قدموس يجسد في أوساط بلاد الإغريق، وبخاصة في طيبة، التأثير الشرقي على الثقافة البدائية الهلينية". لم يكن شعب قبل الرومان أسهم أكثر من الفينيقيين بنشر الثقافة المتوسطية في الغرب الأوروبي. فقد مهدت فينيقيا إلى حد بعيد للفلسفة الهلينية". فهناك فلاسفة كبار من القدامى الذين يعتبرون عادة من الإغريق هم، حسب قول الإغريق أنفسهم، من أصل فينيقي. وبين الأكثر شهرة نذكر الأسماء التالية: الفيلسوف وعالم الرياضيات طاليس الميليّتي (بين القرن السابع والسادس قبل الميلاد، صاحب النظرية الهندسية التي تحمل اسمه، ثم الفيلسوف والعالم الرياضي فيثاغورس (القرن السادس) الذي تنسب إليه أبوة حساب وتر الزاوية القائمة وجدول الضرب، ثم الفيلسوف زينون، من مدينة كتيتم الفينيقية في قبرص (عاش بين القرن الرابع والثالث قبل الميلاد)، مؤسس المدرسة الرواقية، "فينيقي لا يتكلم جيداً اليونانية" وغيرهم.

ثم هناك فيلسوف فينيقي هو موخوس الصيدوني، الذي عاش في النصف الأول من الألف الأول

قبل الميلاد، أو قبل هذا التاريخ، وقد افترض مذهباً فلسفياً قد هز عالم عصرنا الحديث. انه المذهب الذري، قاعدة النظرية الذرية المعاصرة. وقد ادعى علماء معاصرون بأن الفيلسوف الإغريقي ديمقريطس (حوالي سنة ٤٠٠ قبل المسيح) هو الذي أوجد هذا المذهب. لكن الإغريق أنفسهم، كالكاتب وعالم الجغرافيا سترابون وغيره من المؤلفين الإغريق، نسبوا هذه النظرية لموخوس الصيدوني. وعدا ذلك، فإننا نعلم أن مؤلفات موخوس، الاقدم بكثير من ديمقريطس، "قد ترجمت إلى اليونانية"، وان هذا الأخير قد سافر مرات عدة إلى الشرق. "ومن الممكن أن يكون ديمقريطس قد اطلع خلال هذه الأسفار على التراث الأصيل للنظرية السابقة لنظريته".

لما استعاد الإغريق مكانة خلفائهم الآخيين فوق البحر، في القرن الثامن قبل الميلاد، التقوا في طريقهم هؤلاء البحارة الشرقيين الذين سموهم "فينيقيين". وقد تولد حقد دفين من هذه المزاخمة البحرية، أي المجابهة بين الفينيقيين والإغريق، تماماً كما كان تولد من المجابهة سابقاً بين الفينيقيين والكريتيين وبعدهن بين الفينيقيين والآخيين. ولم يكن اشتراك فينيقيا إلى جانب الفرس في الحروب المادية الشهيرة (٤٩٢-٤٦٦) سوى مرحلة دموية من المزاخمة التجارية بين هذين الشعبين البحريين المتاجرين. وقد ذكرنا أن تدمير الاسكندر الكبير لمدينة صور العظيمة (سنة ٣٣٢ قبل المسيح) كان الخاتمة العظمى لهذه المنافسة.

فينيقيا والعالم القديم

بعد أن وسع الفينيقيون دائرة نشاطهم البحري والتجاري أوسع بكثير مما كانت في الألفين الثالث والثاني، نشروا بسرعة، في الألف الأول قبل الميلاد، في بلاد الإغريق وفي أفريقيا وإيطاليا وإسبانيا، فنون الشرق الأدنى وعلومه. "لقد جمعوا الشرق والغرب بشبكة من العلاقات التجارية والثقافية، وهكذا كانوا أول من انتشل أوروبا من الحياة البدائية، ولم تكن الروائع الأدبية لتعطي الشعوب المتوسطية بعض الوحدة، وإنما هي الحاجات التجارية. ولا شيء يبرهن على هذا بطريقة افضل من وجود علاقة سببية فعالة بين التجارة والحضارة". "مهما كان اصل الثقافة الفينيقية، فتأثيرها على تطور الإنسانية كان كبيراً. فالفينيقيون، بفضل ميلهم للتجارة والملاحة، كانوا همزة الوصل بين الشرق والغرب، في الألف الأول. وكانوا مروجي الرفاهية والعيش الرغد، وكل ما يحجب الحياة. وهم، سواء اخترعوا أم لم يخترعوا الأبجدية، قد قاموا، بدون شك، بنشرها في جميع بلاد العالم القديم، وهكذا فتحوا للفكر آفاقاً لا تحد وقدموا للحضارة خدمات لا تقدر بثمن. لكن القسط الضخم الذي قدموه، بدون ثمن، والذي البس هذه الحضارة الغربية ثوباً منهم، كان في نشرهم لغتهم (في أفريقيا) وعلى أي حال، فإننا نشهد اليوم ظاهرة مشابهة تقريباً.

فاللغة العربية تنتشر بسرعة في أفريقيا، بين القبائل السود، التي ليس لها لغة كاملة".

خاتمة

"لقد حدد الأستاذ ساباتينو موسكاتي، العصر الذهبي الفينيقي الخالص بين القرن العاشر والقرن الثالث قبل المسيح. ولكن، حتى ما بعد القرن الثالث، إن الفكر الفينيقي، المبني على الواقعية والعلاقات الإنسانية الطيبة والتوسع السلمي، بقي حياً حتى أيامنا هذه، "ويبدو في آخر المطاف أن الفينيقيين حملوا إلى العالم رسالتين رئيسيتين: فهم اخترعوا هذا النوع من التفكير الذي نسميه، حسب الأوساط والعصور: واقعية، وضعية، الحس التجريبي، المذهب "البرغماتي" النفعي. وهذه الصفات، مع رمزها، الكتابة المبسطة، خلقت ذاك الذي نعتقد خطأ أنه "الفكر الغربي". ولكن إلى جانب هذه الواقعية، وبطريقة فضولية، ترك الفينيقيون للعالم رسالة أخرى، هي تلك التي تعطي الأولوية للروحانيات، ولكن بشكل مبسط أيضاً. وهذه الروحانية كانت تركز على الشمس، الإله القوي المشع البعيد المنال، والموجود في كل مكان. أنها الروح الواقعية التطبيقية في الروحانية الفينيقية السامية، وهي التي تفسر حبهم العميق للسلام، الذي كان يستحوذ على مشاعرهم.